آفاق منهجية في نظرية الإصلاح

■■ الشيخ ناجي أحمد زواد*

جهدت النظم الحديثة بشتى مذاهبها ومدارسها، الفكرية والاجتماعية، في البحث عن الوسائل والآليات التي يتيسر معها الإصلاح، ولقد عرضت في هذا المجال الكثير من النظريات والرؤى التي يعالج بها أمر المجتمع، سيما ما يعانيه من أزمات اجتماعية وظواهر مرضية، حتى كثرت وتشعبت المناهج الإصلاحية عبر الزمان والمكان، وغدا كل فريق إلى ممارسة ما توصل إليه من فكر ومنهج في سبيل الوصول إلى الغاية في إصلاح المجتمع.

ولا ريب أن الصورة كانت تختلف عند كل مذهب ومدرسة، وكذا كل جيل والجيل الآخر، باختلاف مشاربهم و توجهاتهم الاعتقادية والحياتية.

فيذهب النظام الرأسمالي فيما يرتئيه للنظرية الإصلاحية للقول بأن الإصلاح لا يمكنه أن يكون إلا بتوفير الحريات في جميع ميادين الحياة، سواء الاقتصادية أو السياسية أو الفكرية أو الشخصية فإذا وفرت جميع تلك الحريات أمكن الإصلاح.

أما نظيره الماركسي الذي قامت نظريته على تفسير التاريخ بوسائل الإنتاج فإنه انتهى إلى أن الإصلاح يتم عبر تغيير البنى والعلاقات الاجتماعية من خلال النظم الاشتراكية والشيوعية بإلغاء الملكية الفردية الخاصة لوسائل الإنتاج، فإذا طبق ذلك أمكن الإصلاح.

وهكذا الحال فكل توجه ينظر لطريقة الإصلاح من زاوية متعلقا بها دون سواها، فذو الشأن الثقافي يرى أن الأسباب الرئيسية مرتبطة بالقصور المعرفي والعلمي، وكذا صاحب التوجه السياسي والاقتصادي والتاريخي وهلّم جرا.

* عالم دين وكاتب - السعودية.

ورغم أن النظريات آنفة الذكر قد أتت على علاج بعض أزمات ومشاكل الواقع الذي تنتمي إليه إلا أنها كانت قاصرة عن تلبية جميع الاحتياجات اللازمة مما أصابها بالإعاقة في بعض أمورها، الأمر الذي جعلها عاجزة أمام الكثير من المشاكل والأزمات في استنزال الحلول الملائمة لتضميد التصدعات وعلاج العلل والأزمات.

وهذه ليست مشكلة منهج وإنما هي مشكلة إنسان، فكلما ابتعد عن لغته المعرفية الأصيلة، النابعة من صميم وجدانه الإيماني، ووجد أنه قادر على معالجة أوضاعه دون الحاجة للالتجاء إلى هديها، والنهل من معالمها ومآثرها، فإنه سيصدم بكثرة ما يتعثر فيه، وستتراكم عليه الأزمات والمشاكل المستعصية، وسيدرك بعدها ضرورة الاستعانة بمفاهيم الدين ونظمه، وسيجد أنه مرغم على الامتثال له.

ومن خلال هذا التوجه بالابتعاد عن الأصالة المنهجية في الرؤية والعقيدة، إضافة إلى التفريط في تعاليم الشريعة ومفاهيمها، فإن الإنسان هيأ في ميادين حياته مساحات شاغرة لتوطين عناصر الإفساد، لتتصدى من ثم لمواجهة عوامل الإصلاح والصلاح في مسيرة البشرية، ولا غرو أنه ليس وليد الساعة بل أتى متزامناً مع مسيرة الحياة البشرية، ممتداً عبر قنواتها وامتدادها الزماني والمكاني، فهاتان المسيرتان متجذرتان ومتجددتان، واحدة نحو الإصلاح والأخرى للإفساد، ومقاصد الإصلاح تهدف إلى بناء حياة الإنسان وإخراجها بالمظهر اللائق السليم، والأخرى قائمة على عملية هدم حياة الإنسان وتعطيل دوره الحياتي.

ولقد عرض لنا الذكر الحكيم عبر آياته صوراً متنوعة عن منحى الإفساد في حياة البشر، وخَلُص إلى أنها من الظواهر المرضية التي قادت المجتمعات إلى الهلاك والدمار، ولقد تناولت آيات الذكر ذكر الرموز التي لعبت دوراً بارزاً في هذا الصدد، وروجت بشكل غير متناه لنشر ظواهره بين المجتمعات الإنسانية، فضلاً عن الأدوار الأخرى التي جاءت متزامنة مع نفس الغاية، ومن أبرز نماذج هذا الخط الذي أصَّل بشكل كبير لامتداد هذا المفهوم بين الناس، السلطتان النمرودية والفرعونية، ولقد سخرّت هذه الاتجاهات السلطوية كل ما بين يديها من قدرات وإمكانات لتنتصر لأرائها ومفاهيمها، لتبقى معالم أسسها الفسادية ممتدة في حياة الأمم وثقافتها، ناهيك أنهم قسروا عامة الناس على اتباع مناهج وقوانين لا تتعدى مصالحهم الشخصية، وأطماعهم الذاتية، فأفسدوا جلّ ما في الحياة من نظم وقوانين ومناهج، إذ كانت سُخْرة لرغباتهم الشهوانية، يقول تعالى في الحديث عن أحد أعمدة هذه الرموز التي طغت على سائر النظم الطبيعية: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾[1].

كما أن الباري عز وجل حين خاطب تلك الأمم السالفة نهاهم وحذرهم مغبة الوقوع في

المنعطفات الحرجة، التي تأخذ بحياتهم إلى الضياع والهلاك واستحقاق العذاب، قال تعالى: ﴿ وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾[٢].

أضف إلى ذلك أن الباري عز وجل في وصيته للإنسان ورشده، أوعز إليه مكافحة وسائل الفساد وتجنب مسالكها ومقاصدها، وكلما أمكن له التخلص من مناهجها وسبلها آل أمره إلى الخير والصلاح، ذلك لأن رموز الفساد لا يقصدون لأممهم ما يعود عليهم بالنفع والصلاح وإن تظاهروا بعوامله ووسائله، غير أن جوهرهم مخالف لذلك، قال تعالى: ﴿ وَلاَ تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ ﴾[٣].

وأمام ما يشهده المسلم في عصرنا وحاضرنا من تقدم وإنجاز حضاري متميز، على شتى الأصعدة والمجالات، ينتابه نوع من الشعور بالانبهار إزاء ما انتهت إليه تلك النظم الوضعية، وللوهلة الأولى يبدو التأثر ملموساً وواقعياً بانبعاث معالم تلك الحضارة، ثم لا مناص من التعاطي مع أدواتها وأشيائها، مهما جهدنا للتقليص والتقنين، بل بات جل ابتكاراتها من لوازم الحياة العصرية، وأمام كل ذلك فإن الشريعة المقدسة تُولي هذا الموضوع عناية خاصة، وتدفع المسلم إلى النهوض والتقدم، فالقرآن الكريم - قاموس الحضارة الباعث للمبادئ والقيم الخلاقة التي تنطلق منها الحضارة - يبين أن الإنسان قادر على كسب الحضارة إذا وظف لها ما تحتاجه من وسائل وآليات، وفي المقابل أيضاً يشير إلى ضرورة التزام الحضارة بضوابط الشرع المقدس، فهو صمام الآمان الذي يحفظ لها البقاء ويجدد فيها الاستقامة والعطاء، أما إذا انتهجت طرقاً ملتوية ولم تتبع هدى السماء فإن مصيرها الدمار والتلاشي في الدنيا والآخرة، فجميع الحضارات المتبعة للسبل المختلفة، كان مصيرها واضحاً، ولذا فإنها انتهت، وهذا مصير كل حضارة تعتنق عقيدة باطلة وتسلم بها، وعلى هذا جرت مسيرة الكون وقامت السنن الحاكمة المُسلَّم بها، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾[٤].

ولعل جذر المشكلة أن الإنسان مهما يرتكب من جنايات ويُسَخِّر من وسائل الفساد للإضرار بواقع المجتمعات البشرية إلا أنه يتنصل من ضلوعه في تلك المآسي والأزمات، ويزعم تبنيه للشأن الإصلاحي القائم على إيجاد الصيغ الفاعلة لتحقيق الحياة الفاضلة للمجتمع، ومهما تضع من شواهد وبراهين تثبت ضلوعه في الإفساد فإنه يدعي اعتناق خط الإصلاح، يقول تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾[٥].

فرغم ما يرتكبه ذلك التوجه من عظائم الأمور إلا أنه يزعم تعاطيه وتبنيه لفكر الإصلاح، والقرآن الكريم يعبر عن هذه المسيرة بمسيرة الضلال التي تحمل رايات الغواية لإقناع العامة بصحة أفكارها ومناهجها في الحياة، قال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ

بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾[٦].

كما أنه لا يخفى أن الميولات الفكرية والشخصية لجهة أو جماعة أو حزب، تسوغ للفرد - حفاظاً على العلاقة وتوثيق اللحمة والارتباط - أن يمارس بعض الأعمال التي قد تنافي مفاهيم الشرع المقدس، أو تتعارض مع المعاني الإنسانية، بأية وسيلة كانت للحصول على الرضا الجمعي، فيكون أداؤه خارج دائرة الإصلاح، بل قد يتجرد من قصد القربة في أعماله ومساعيه تحقيقاً لتلك المسألة، وهذه ظاهرة مرضية خطيرة قد تصاب بها بعض فئات المجتمع، فتذهب بسببها فائدة العمل فيصبح هباءً منثوراً، يقول تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُورًا ﴾[٧].

ولنا أن نتساءل في هذا المقام: تُرى لماذا تكون مقاصد الإنسان منصرفة إلى تبني مشاريع الإفساد والإضرار بمرافق الحياة العامة، أكثر مما هو قاصد لمشاريع الإصلاح والبناء؟.

ثم لماذا تكون انطلاقته نحو ممارسة عملية الإفساد بشكل أكبر؟.

بل لماذا كل هذا الإصرار على اتخاذ هذا المنحى الحرج ؟.

هنالك عدة محاور يتمحور الإنسان حولها ومن خلالها يبني المرتكزات والمنطلقات التي ينطلق منها، وكل مفردة لا تقل أهمية في تنفيذ المخططات الإفسادية وابتكار وسائلها عن الأخرى في تحقيق الأغراض المشتركة، وهي بإيجاز على النحو التالي:

أولاً: طموحات كاسرة:

من المراحل الخطرة التي يمر بها الإنسان في حياته فتتعرض فيها إنسانيته إلى المسخ والاستلاب، هو حين يتحول إلى العبودية المطلقة للذات، فتصبح مقصده وهدفه الذي يكرس جلّ جهده ومساعيه للوصول إلى وسائلها وآلياتها، يقول تعالى:﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ﴾[٨]. فينصرف جلّ جهده ومساعيه لتحقيق تلك الرغبات انطلاقاً من محور الذات، فتتحول جميع الممارسات على أساس هذا الصعيد، الأمر الذي يدعوه إلى تجاوز حقوق الآخرين ومجانبة دواعي الصلاح على الصعيد العام، بل إنه لا يتراجع عن ذلك قيد أنملة.

ثم قد تتحول حياة الإنسان إلى تكريس من أجل الذات، وسعي لخدمة الأغراض الشخصية، فتكون انطلاقة البناء والتعمير لخصوص تلك الأغراض فحسب، فَتُسَخَّر جل الأمور لخدمة تلك الغاية، فيصبح الوازع الوجداني أقل استجابة لأجراس التنبيه والتحذير مغبة السقوط في أحضان الملذات والشهوات، وربما سلبت منه إنسانيته المعنوية للفوز بحبائل الدنيا وملذاتها البراقة للأبصار، فلا يكون حينئذ قادراً على سماع ما يُتلى من

مفاهيم إرشادية، بل قد يكون أكثر اشمئزازاً حين سماع نشيدها، لكنه في المقابل يتفاءل ويسر إذا ما ذكرت الدنيا، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾[٩].

وهنا لا بد من الإشارة إلى أن الإسلام لا يلغي غريزة حب الذات ولا يتجاوزها، ولكنه يهذبها، ويطورّها، ويوسع من آفاقها، ويوظفها في خدمة الإنسان والمجتمع. فغريزة حب الذات في إطار المفهوم الإلهي للحياة ليست دافعاً لتحقيق اللذة والمنفعة على حساب الآخرين، وإنما أداة لتحقيق اللذة والمنفعة في خدمة الآخرين، وفي طريق مرضاة الله، والفوز في الآخرة[١٠].

ولا يخفى أن الدافع الحقيقي لمزاولة المشاريع المضرة بصحة المجتمع وسلامته، هو ما ينساق إلى ترجمته وإيجاده، من طموحات هدامة، وآفاق ضيقة، لا ترتقي إلا للمصالح الذاتية، وهو الذي يدفع لتأسيس مناهج الإفساد في حياة البشر، فينغمس في عبادة الأهواء، وهي من المراحل الخطرة التي يتدنى فيها الإنسان فيفقد أهم مميزاته الإنسانية، يقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «ما تحت ظل السماء من إله يعبد من دون الله أعظم عند الله من هوى متبع»[١١] فالأهواء والشهوات ترسم للإنسان منهجية مغايرة لتعاليم الدين ومفاهيمه، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللّه ﴾[١٢].

وحينما تتحول هذه إلى غاية وهدف في حياة الإنسان ويصر على تحقيقها فإنه يتجرد عن فطرته السليمة وحياته البسيطة فيتحول إلى مسخ في تعامله مع التعاليم الإلهية، قال تعالى: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ. وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[١٣]. فتلبية المطالب لإرضاء الذات في حدود المعقول ليس به بأس، بل قوام الإنسان وإصلاح شأنه الحياتي مرتبط بذلك، غير أن الإفراط يجر الإنسان إلى عبادة الذات والانغماس في الأهواء والشهوات وضياع الطريق في الدنيا والآخرة.

ولقد ورد التحذير من جانب الشريعة المقدسة مغبة الوقوع في أحضان الهوى والشهوات، لأنه متى وقع أصبح في غياب وضياع، يقول الإمام علي عليه السلام: «أوصيكم بمجانبة الهوى، فإن الهوى يدعو إلى العمى، وهو الضلال في الآخرة والدنيا»[١٤]، وقال عليه السلام: «إنك إن أطعت هواك أصمك وأعماك وأفسد منقلبك وأرداك»[١٥]، وقال عليه السلام: «إنكم إن أمرتم عليكم الهوى أصمكم وأعماكم وأرداكم»[١٦]. والتاريخ يطلعنا على نماذج مشابهة لهذه الصور التي ترسم عبادة الهوى وترفض التخلي عن ممارسة دور إشباع الذات حتى مع تجلي اقتضاء المصلحة والصلاح ورعاية الحقوق العامة، وهي كثيرة، لا تنحصر في شخصية دون أخرى، لكنها تتشابه في الأدوار وخدمة المصالح الشخصية، فهارون الرشيد

الذي آثر الاستئثار بالسلطة والخلافة كان يدرك جيداً أن الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام -كما آبائه الكرام عليهم السلام- أحق بمقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من جميع الخلق، لكنه ما كان ليسلمه الأمر، وحين سأله المأمون عن موسى بن جعفر عليه السلام قائلاً: من هذا الرجل الذي أعظمته وأجللته وقمت من مجلسك إليه فاستقبلته وأقعدته في صدر المجلس وجلست دونه ثم أمرتنا بأخذ الركاب له؟! قال: هذا إمام الناس وحجة الله على خلقه وخليفته على عباده، فقال له ولده - المأمون - أوليست هذه الصفات كلها لك وفيك؟ فقال: أنا إمام الجماعة في الظاهر والغلبة والقهر وموسى بن جعفر عليه السلام إمام حق، والله يا بني إنه لأحق بمقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مني ومن الخلق جميعاً، ووالله لو نازعتني هذا الأمر لأخذت الذي فيه عيناك، فإن الملك عقيم[١٧].

ثانياً: تغييب المبدئية:

من المفاهيم الخاطئة التي تحتل مساحة كبيرة في حياة الأمم والمجتمعات التعصب للقناعات الشخصية والميولات الفكرية، ورفض الآخر وما لديه من رؤى وأفكار، ولا غرو أن هذه المنطلقات مخالفة لأبسط الموازين العقلية و ترفضها سائر القياسات المنطقية، وهؤلاء بالدرجة الأولى يؤثرون قناعتهم الشخصية على التسليم والقبول بما يتجلى لهم من حقائق ناصعة، فمهما يتضح لهم من معاني وُمُثل تكشف عن صحة تجربة الآخر وأفكاره فإنهم لا يتعاطون معها، بل ربما قابلوا ذلك بعدائية وعنف. وثمة حقيقة ينبغي ذكرها وهي أن هذا التوجه قلما يتوافق مع لغة العقل والموضوعية والانصياع للبراهين العلمية، ويؤثر قناعته الزائفة رفضاً للتسليم والقبول بالمبدئية والقوانين الطبيعية.

ولا مناص من أن هذه الهواجس تستوطن أعماق الإنسان لكنها إنما تتنامى وتتطور بتهيئة المناخ الذي يُعبئ هذا التوجه ليتصاعد هذا الخط ممتداً عبر القنوات المتاحة والمهيأة، فينفلت حينها من عقاله فلا يكترث بأفكار الآخرين وأشيائهم، وتأخذه النزعة العدائية تجاه كل ما هو قيمي وأخلاقي لأنه يخالف فكره ومنطقه، ويوظف كل ما يملك من أدوات معرفية في تأصيل مشروعه هذا وامتداده. والقرآن الكريم تحدث بإسهاب عن النماذج والأفكار التي ابتغت تأسيساً امتدادياً مغايراً لكل ما يمت إلى مفاهيم السماء ومناهجها الخلاقة بصلة، وكان السجال دائراً بين قيم الحق وأبواق الضلال طوال المسيرة البشرية، وكانت العدائية تتجلى بأجلى صورها وأعتى أدواتها للانتصار على المثل والمعاني الخلاقة، لتلقي بالإنسانية جمعاء إلى ردهات الظلام، يقول تعالى: ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴾[١٨].

ومن جملة الرموز التي أصَّلت لامتداد هذا الخط ليستمر على هذا النمط في التعامل والعلاقة، زعماء قريش وحلفاؤهم، إذ كان لهم فكر عقائدي مختلف، فقريش التي قَصُرَت

عن استدعاء أدلة الاحتجاج والبراهين لتوظفها في معركتها مع رسالة النبي ﷺ وكانت أدواتها غير قابلة للإقناع والموافقة؛ لجأت إلى استخدام العدائية لإخراس المنطق السليم، فبادرت إلى استئصال موضوعية الرسالة وبراهينها الخلاقة بتظليل المجتمع وتغييب كل بارقة حقيقية للنهوض به من وهدة الضياع والظلال، قال تعالى:﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا. أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا. أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلاً. أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً ﴾[١٩].

ثالثاً: القفز فوق الحقوق الإنسانية:

لقد باتت الأعراف الحضارية السائدة تجتهد في مساعيها الرامية إلى مسخ المبادئ والقيم، والإجهاز على المعالم الإنسانية بشتى صورها ومعانيها، بل غدت تعرقل كافة المحاولات الهادفة لصيانة وحفظ هذه الحقوق الإنسانية، بذريعة بناء المدنية والحضارة، وأنْ تُحَوِّلَ الإنسان إلى مجرد أداة في ماكنتها ووسائلها، إذ ليس مهماً كما قد يتصور أن يكون الفرد أكثر فاعلية ونشاطاً في معلم الحضارة ودستورها، وإنما الأهم أن تبقى الحضارة، حتى لو كان الثمن إزهاق إنسانية الإنسان، واستلاب هويته وكافة حقوقه الشخصية والمدنية، لا سيما إذا كانت المهام تقتضي تحقيق النتائج!.

ونشير قبل الحديث عن الحضارة إلى أننا لا نتحامل عليها حين الحديث عنها، بل نُجِلُّ ونُكْبِر ما قدمته من إنجازات ووقفات في سبيل خدمة الإنسانية، فَتَقَدُّم وسائلها وآلياتها على صعيد الخدمة الإنسانية في مجالات الصحة ومكافحة الأمراض، إلى كثير من العلوم والمعارف التي تخدم تقدم الإنسان وتطوره، من الأمور التي يحترمها ويقدرها سائر البشر، أضف إلى ذلك أن شرعنا الحنيف جاءت دعوته صريحة إلى الاستفادة من علوم الآخرين، والاستفادة من خبراتهم وتطلعاتهم، والانفتاح عليهم، وكان هذا الشعار عنوان الرسالة وباعثها، يقول تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾[٢٠].

وقفة مع الحضارة:

لقد قيل: إن الحضارات إنما تتولد لدى المجتمعات البشرية نتيجة الاحتياجات الضرورية، فدافع الحاجة يضغط في هذا الاتجاه لاستمرارية البحث والسعي لتحقيق تلك الغاية، وفي المقابل فإن المجتمعات التي لا تنمو لديها إرادة الحاجة تكون أقل قابلية للانبعاث في تمهيد البناء والنمو، وتتميز الأمم التي تعيش الدوافع وإرادة الحاجة أنها تصل إلى ركب المدنية والحضارة، وقد تتفوق المجتمعات المتحضرة بسبق ركب الحضارة والتقدم، بما ينبعث

فيها من عزيمة وإصرار على تقديم المستحيلات العلمية، واكتشاف الأمور المعقدة، وخلق المعاجز العلمية المتنوعة، ولا غرو أن عصرنا يعايش هذا القبيل من التقدم والإنجاز على شتى الأصعدة والمجالات، لكن لنا أن نسأل أنفسنا، هل إنسان المدنية والحضارة الذي قطع شوطاً كبيراً في التأسيس والبناء، هل يهدف إلى بناء وتعمير البنى الحضارية بعناوينها الحقيقية؟ أو فعلى هدم لا بناء؟

قبل الإجابة لابد أن ندرك حقائق ثابتة ففي الحياة اتجاهان، الأول نحو البناء وعمران الأرض بالحضارة، وهو الوجه الأنيق والجميل للحضارة، الذي يتبنى مشروع بناء حياة البشر وتطويرها، وسائر كل النفوس الإنسانية الطيبة ترتضيه، بل جبلت على موافقته ونادت بإيجاده. أما الثاني فنحو هدم الحضارة، وإفساد القيم الحضارية، وقد جبلت النفوس الإنسانية الطيبة على مقته وعدم موافقته.

فالأول هو الذي يبحث عن احتياجات الناس وما يعود عليهم بالخير والرفاه، ويسعى لإيجاد الوسائل التي تساعد على تسهيل أمور الحياة المعيشية.

أما الثاني فهو الذي يدفع باتجاه تهيئة وسائل هدم الحضارة والإنسان وتدميرهما، ويبحث عن آليات الفتك والإبادة لسائر الأحياء.

فكم يموت من البشر في ماكينة دعوى الحضارة؟ وكم هذه الشعوب المستضعفة التي تعاني ألم الفقر والجوع والحرمان لترتقي فوق أنقاضها الحضارة؟ وكم إنسانٍ يعيش الجهل والضياع واستلاب الحقوق بعناوين الحضارة؟

فالحضارة التي ينبغي لها أن تكون مسخرة بكل إمكاناتها ووسائلها لصلاح شأن الإنسان، وخدمة أموره في الحياة، تتحول إلى معول دمار وهدم لبناء حياته، ولن نأتي بجديد حين القول: إن كل ما في الكون الرحب من مسخرات طُوِّع ليكون في خدمة البشر وإصلاح أمورهم، قال تعالى: ﴿ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَين وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾[٢١].

أضف إلى ذلك أن عالم الحضارة يسير بركب العلم والتقدم نحو الهدم والدمار، فلعل اكتشافاً علمياً يعد إنجازاً وتقدماً من جهة المظهر، لكن أعماقه تحمل المآسي والأزمات للإنسانية جمعاء، فضلاً عن استقامة الحياة وبقائها، خصوصاً مع وجود وسائل الفتك والدمار المتطورة بسائر أصنافها وأغراضها، ناهيك أن تطبيقاً لفكر حضاري وتحقيقاً لكسب ملموس، يستدعي أن يموت الملايين من البشر حتى لو لم تظهر جدوائية تلك الأفكار والرؤى، وفي نهاية المطاف فإن الحفاظ على المكاسب أكثر احتراماً من المعاني الإنسانية.

إن الحضارة الأوروبية التي أحرزت أعظم ما يمكن أن يتاح من نجاح على صعيد

الإنجاز المادي والسيطرة على الطبيعة قد منيت بأخطر ما يمكن أن يحصل من إخفاق على صعيد بناء الإنسان، ففي حقل الإنجاز المادي نجاح خارق وفي حقل بناء الإنسان إخفاق مأساوي[٢٢].

ولن نكون متجنين على حضارة الغرب إذا أيقنا أنها أقامت سداً منيعاً أمام النهضة الإنسانية لتحول دون وجودها، بل إنها استخدمت كافة ما تمتلك من وسائل وإمكانات لإعاقة مشاريع النهضة، ويكفي أن تتصفح أرشفة التاريخ لتكتشف تلك الجرائم والمآسي التي قدمتها حضارة الغرب.

فالأبحاث تقدر الضحايا من الأفارقة خلال مائة عام بين ١٦٠٠ إلى ١٩٠٠ بأكثر من مائة مليون ضحية بين مستعبد (بكل ما تحمل كلمة العبودية من معنى، وهذا ما تشهد به أمريكا)، وقتيل في المعارك، أو من السياط والتعذيب والاختناق في أقبية السفن التي تمخر عباب الأطلسي. ثم كان إلى جانب ذلك الاندفاع لاستعباد الملايين من الأفارقة اندفاعة أخرى لإبادة عشرات الملايين من الهنود الحمر في الأمريكيتين، وتقدر بعض الإحصاءات أن عدد الهنود الحمر الذين أبيدوا في عصر (النهضة) يفوق مائة مليون إنسان، ثم يجب أن يضاف إلى ذلك مئات الألوف وربما ملايين الضحايا التي تكبدتها بلدان آسيا المختلفة بعد أن انطلق الوحش الأبيض من عقاله[٢٣].

وهاهي القوى الاستكبارية التي تتصدر في عصرنا الراهن زعامة عالمية بما لها من مكانة متقدمة في المدنية والحضارة، تتغاضى عن القضايا الإنسانية ومعاناتها، إلا ما يخدم مصالحها وطموحاتها، وجل مناداتها بالديمقراطية مندرجة ضمن هذا المعطيات، ولذلك فإنها لا ترفع هذه القضية أو تلوح بها في خضم انتهاكات صارخة لحقوق الإنسان وحرياته إلا ضمن ما ينسجم مع مطالبها، ورغم ما ترفعه من شعارات لحفظ الأمن والدفاع عن الحقوق الإنسانية، فإنها تسوغ للصهيونية العالمية انتهاك الحقوق على أرض فلسطين المحتلة، وتهديد المنطقة برمتها بأسلحة الدمار الشامل، ورغم التقارير المتتالية عن الترسانة النووية التي تملكها الصهيونية، تبقى تلك القوى المتحضرة في صمت تام حيال ذلك، وترفض بما لها من قدرة وصلاحية فتح هذا الملف الذي يتعارض مع مصالحها، بينما تحظره على الدول المجاورة، وتضرب بيد من حديد كل من تحدثه نفسه بامتلاكه، خشية أن يهدد الوجود الصهيوني واستقرار أمنه، وفي الدراسات التي أعدت في مجال التسلح النووي جعلت إسرائيل في المرتبة الثالثة لاقتنائها عدداً كبيراً من الرؤوس النووية، وفي هذا السياق نقلت (مجلة المجتمع) على لسان العضو العربي في الكنيست الإسرائيلي عصام مخول، قال قبل ثلاث سنوات: إن (إسرائيل) لديها من ٢٠٠ إلى ٣٠٠ رأس نووي، لكن اتحاد العلماء الأمريكيين أعلن في العام نفسه أن (إسرائيل) يمكن أن تكون أنتجت ١٠٠ رأس نووي على الأقل، لكن لا يتجاوز ٢٠٠ رأس نووي.

وهناك مصادر أوروبية أخرى كمعهد ستوكهولم الدولي لأبحاث السلام قدرتها أيضاً بحوالي ٢٠٠ رأس نووي، إلا أن هناك مصادر أخرى كمجلة جينز العسكرية المتخصصة قدرت وجود ٤٠٠ إلى ٥٠٠ قنبلة نووية ونووية حرارية لدى إسرائيل[٢٤].

إن هذه النظم الإمبريالية تكرس هذا الواقع المرير، وتتعالى على القيم الإنسانية، وتزهق روحها ومعنوياتها إذا تخلت عن فكرها وثقافتها الاستبدادية، فلا ترفع من الحقوق إلا ما يتوافق مع مخططاتها وميولاتها.

لكن بعد كل ما ذكر كيف يمكن للإنسان أن يكون مصلحاً؟ وما هي مميزات المنهج الذي ينبغي اتباعه؟ وما هي الخطوات الضرورية في هذا المجال؟

أولاً: مقاصد مسارات الإصلاح:

قد تختلف وسائل الإصلاح وتتعدد مفرداتها وأفكارها، حتى تصبح دوائرها واسعة النطاق، مما قد يكون من الصعوبة بمكان السيطرة على وسائلها وآلياتها، من حيث الالتزام بالحيثيات والمضامين التي ينبغي الامتثال لها، ولعله يتكرر ويحدث بشكل دائم، إذ غالباً ما تأتي مشاريع الإصلاح في سبيل البناء، وحفظ الحقوق الإنسانية العامة والخاصة، لكن نتيجة الأخطار التي تهدد الموقف إضافة إلى الظروف المعيشية القهرية تضطر الأدوات (المصلحة) إلى أن تفرض واقعاً ومنهاجاً يجانب قضايا الإنسان، وقد لا يمت للدين بصلة، ناهيك أن وضع الحلول للقضايا والأزمات ربما خالف العقيدة والفطرة، وممارسة استنزال الحلول القهرية بدعوى تطبيق فكر الإصلاح، ودعم مناهجه الفكرية المرسومة، ولذا نجد القيم الإسلامية تجسد المعايير الحقيقية للمعاني والمثل، فهي تحاور وتتحرك انطلاقاً من الدعوة إلى الإصلاح، الذي يحمل هموم المجتمعات وخلاصها من ربقة التخلف والجهل والضياع، فترفض أن تكون وسائلها الإصلاحية غير مشروعة، أو تنفذ إلى الآخرين عبر طرق ملتوية لتحقق الأهداف الشخصية، قال تعالى: ﴿وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِين﴾[٢٥].

ومهما كانت الضرورة ملحة لتأسيس مشروع الإصلاح في الأمة إلا أنه لا يسوغ للمتصدين ممارسات الوسائل الملتوية، باستخدام الطرق الرخيصة كالغش والخداع وتزييف الحقائق، للوصول إلى تحقيق المصالح والأهداف الشخصية، وإنما هو خلاف ذلك.

وما يتجلى لنا من نماذج ناصعة مثلت معيارية الإصلاح وتحقيق قيمه على أرض الواقع ليس بقليل، وقد كان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ينأى بمبادئه ومثله أن يتخذ وسائل مغايرة في ممارسة مهام الإصلاح، لذا نجده لا يضطر الآخرين عند تخليهم عنه أو عدم انصياعهم له، بل كان يرفض كل ما يرفع إليه من توصيات وآراء لإخضاع قطاعات الأمة وإلزامها بمشروعه، ويعود رفضه ذلك إلى كونها لا توافق قوانين النظم

الإصلاحية التي يرتضيها، بل كانت أداة لتحطيم المعايير الأصيلة وركائز بنائه القيمي والفكري، فرغم إدراكه عليه السلام لهذه الطرق المقترحة وامتلاكه ما تحتاج إليه من وآليات ووسائل لإعادة ضبط الأوضاع إلا أنه كان يؤثر عدم الانصياع إليها، إذ في اتباعها تقويض لمبادئه وقيمه الأصيلة، يقول عليه السلام: «أترونني لا أعلم ما يصلحكم؟! بلى! ولكنّي أكره أن أصلحكم بفساد نفسي»[٢٦]. ولما قيل له: إن أهل الكوفة لا يصلحهم إلا السيف، قال: إن لم يصلحهم إلا فسادي فلا أصلحهم الله[٢٧]. ولقد استخدم التيار الأموي في صراعه مع أهل البيت عليهم السلام عبر محاولاته المتكررة كل ما لديه من وسائل وسبل كيما يجرد هذه المدرسة العملاقة من منهجيتها وأهدافها الإصلاحية، واستخدم وطَوَّع أرخص الأساليب لاغتيال شخصية هذا الفكر، وطمس مفاهيمه وقيمه، غير أنه باء بالفشل أمام عصامية هذا التحرك وتجلده مع ما يلقاه من حملات التشويه.

وحين عزم سيد الأحرار وأبو الشهداء الحسين بن علي عليهما السلام على النهضة ضد يزيد بن معاوية فإنه ووُجِه بحملة إعلامية واسعة النطاق، وظفت ضده الثقافات والأفكار التي تكرس واقع الانقياد والتخلي عن المهام والوظائف المسئولة، لذلك كان الإمام يشرح للآخرين الأهداف التي نهض من أجلها، ومدى علاقتها بنظم الدين ومفاهيمه، فهي لا تحيد عن أصالة الرسالة ومبادئها، بل تنطلق بمعايير وأسس راسخة في العمق الوجداني الديني، فيقول عليه السلام في رسالته لمحمد بن الحنفية رضي الله عنه: «إني لم أخرج أشراً ولا بطراً، ولا ظالماً ولا مفسداً، إنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي».

ثانياً: شمولية المنطلق الإصلاحي:

لكي تتجلى معالم منظومة الإصلاح بكامل حيثياتها ومضامينها وتكون الانطلاقة أكثر وعياً ورشداً، والتفاتاً لأحوال المجتمع وقضاياه، فإنه لا بد من مباشرة دور الإصلاح على أعلى مستوياته، ليشمل سائر الأصعدة، إذ إنه لا يعني مجرد مواجهته لتلك الأطر فحسب، وإنما يتعدى ذلك ليشمل سائر أروقة المجتمع ودوائره بكافة توجهاتها ومشاربها، وقد وردت جملة من الروايات تأكيداً على شمولية بُعْد الإصلاح وعدم اقتصاره على مهام طارئه وحرجة، فيقول الإمام علي عليه السلام: «ثابروا على صلاح المؤمنين والمتقين»[٢٨]. لتبقى الممارسة دائمة ويقظة كيلا تتسرب إلى الأوساط المسلمة ما يشوب علاقاتها ويفسد واقعها، ويقول عليه السلام: «من كمال السعادة السعي في صلاح الجمهور»[٢٩]. وإذا بُذر بين فئات المجتمع وشرائحه ما يعكر صفوهم ويؤسس الفجوة بينهم فإن وظيفة الإصلاح تتضاعف في أهميتها وضرورتها، وورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في وصيته لأبي لأيوب الأنصاري رضي الله عنه: «يا أبا أيوب ألا أخبرك وأدلك على صدقة يحبها الله ورسوله؟ تصلح بين الناس إذا تفاسدوا وتباعدوا»[٣٠]. وأمام هذه الرهانات والظروف القاهرة التي تعايشها قطاعات الأمة

حيث تسحق القيم الحقوقية وتستلب خصوصية الإنسان دون أن تحفظ وتراعى من قبل منظمات الحقوق العالمية وهيئاتها، يستدعي ذلك تضافر المساعي والجهود لمضاعفة أدوار الإصلاح بشتى الصور وعلى مختلف المحاور.

ولعل جذر ما نعانيه ونعايشه من أزمة وتقهقر في إنماء حركة الأمة وانبعاثها بثقافة وفكر مثابر، رغم ما نملك من أصالة المنهج والموروث الحضاري الهائل، هو عدم المراجعة الدائمة لأدوات الإصلاح ووسائله، ودراستها بتأن وتعقل لتكون أقدر على استنبات مناخ صحي وتوعوي ينهض بحركة المجتمعات، ويجعلها أكثر انسجاماً وتناغماً مع تلك الرؤى والمفاهيم.

ومع ما نشاهده من مساعٍ مشكورة تبذل في نواحي مختلفة من عالمنا الإسلامي، إلا أن جملة منها تأتي عفوية، ودون تأمل وإدراك لمضامينها وحيثياتها، ومدى صلاحيتها ونفعها لمتطلبات الواقع، وقد تذهب سدى وتتلاشى مع أدراج الرياح، وربما قصرت عن رفد حركة المجتمعات للاستزادة بالبصائر والرؤى الناهضة بمسيرتها وتطلعاتها، ونحن أحوج ما نكون إلى وضع الحلول الملائمة لصياغة نظم إصلاحية أكثر تأثيراً وفاعلية في استيلاد الشخصية الإصلاحية القادرة على مواكبة مجريات الأمور.

ثالثاً: البعد الحقوقي في أطر الإصلاح:

قيم الحضارة في الشرق والغرب هي السرعة في الإنتاج ونماء المادة، وتسجيل أكبر قدر من المكاسب والأرباح، وإقامة الحجارة على جماجم الإنسانية.

عند قراءة صور التاريخ المتناثرة هنا وهناك يمتثل العنوان الحضاري بما أتيح له من إنجازات ومكاسب هائلة، وفي المقابل ما أجهزت عليه من الحقوق الإنسانية، فتلك الحضارات إنما قامت على جماجم الإنسانية، ولم تراع هذه السمة، فهي تتعامل مع الإنسان كآلة، أو مجرد برغي في ماكينتها.

أما النظرية الإسلامية فإن موازينها مختلفة تماماً، بل إنها تترفع على تلك الوسائل والسبل التي مارست القهر والاستبداد بحق المعاني الإنسانية، ولم تتح للإنسان أن يمارس حياة كريمة، فالقيم هي نماء الروح وتحقيق المكاسب المعنوية، ورفع القيم الإنسانية.

إن الحضارات في معلم التاريخ شاهد على أن بقاء الحضارة وخلودها ليس من خلال إنجازاتها واكتشافاتها فحسب، وإن كان ذلك يعطيها طابع التقدم والتطور، لكن بقاءها إنما يكون بالمحافظة على القيم الحقة التي نشأت عليها ركائزها، لذا فإن الكثير من الحضارات تهاوت واندثرت في ردهات العمق الزمني ولم يبقى منها سوى أطلالها حين تخلت عن المنهج السليم.

إن مجتمع ما قبل الرسالة لم يكن يفتش أو يبحث عن معالم الحضارة، وإنما كان

مجتمعاً منعزلاً عن وسائل العلم وآلياته، بعيداً كل البعد عن نسمات التقدم، أو طموح الرقي، وكان منغمراً بالجهل في كافة شؤونه، وتسوده قوانين متناقضة ومضطربة، فضلاً عما كان متفشياً فيه من أعراف وتقاليد، ولذا تبين الزهراء عليها السلام هذه الأحوال المتردية بقولها: «وكنتم على شفا حفرة من النار، مُذْقة الشارب، ونُهْزَة الطامع، وقُبْسَة العجلان، وَمْوِطئَ الأقدام، تشربون الطَّرْقَ، وتقتاتون القد أذلَّة خاسئين، تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم، فأنقدكم الله تبارك وتعالى بمحمّد صلى الله عليه وآله وسلم بعد اللَّتيَّا والَّتي، وبعد أن مُنِيَ ببُهْم الرجال وذُؤْبان العرب، ومردة أهل الكتاب»[٣١] فجاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم وفجر فيهم ينبوع الحضارة فأشرق فجر التقدم على واقعهم، وغدا ذلك المجتمع يفتش عن وسائل الحضارة وآلياتها في كل مكان، وكانت حركة الدعوة تدفع رسالة العلم والمعرفة ولو كان في ذلك استدعاء للمشقة والعناء (ولو في الصين) فضلاً عن ذلك بعث البعثات لتكتسب الخبرات والمهن المتقدمة، وفي غضون سنوات قلائل وإذا بهم يتبوؤوا موقعاً في سلم الحضارة.

ثم إن الباري عز وجل لم يدع أمة من الأمم في معزل عن معالم الحضارة والتقدم دون أن يهيئ لها الآليات والسبل التي تنبعث بها، فكل أمة لديها من الإمكانيات والقدرات المساعدة على النمو والبناء والتعمير، إضافة إلى بعث المصلحين الذين يعملون على إيقاد الدوافع الحضارية عند الأمم والمجتمعات، وليس هذا مقتصراً على عصر الرسالة والنبوة فحسب، وإنما هو في كل زمان ومكان، غير أن الأمم هي التي تفرط في تلك المدخرات بتعاملها وعدم تعاطيها فتفوت الفرصة تلو الفرصة - وإضاعة الفرصة غصة - وكما يجري التعامل مع مجتمعات الرسالة فإنه ينطبق ويتكرر بصور مختلفة مع الأجيال المتلاحقة، والنظم القانونية تفرض عملية التعاطي والانسجام، فمن ركب ذلك الموج من الأمم والمجتمعات وتمسك بالمعطيات الدافعة للبناء والتغيير فاز بالمكاسب والنتائج الخيرة، والحصول على المرتبة سامية، ومن تخلى أصبح في عداد ركب التخلف والانحطاط.

أضف إلى ذلك أن السماء تعاملت مع الإنسان على أسس متينة وثابتة انطلاقاً من ثقتها بقدراته وما يملك من إمكانيات ووسائل، وبما يتاح له من فرص وافرة، الأمر الذي يمكنه من إنجاز المعجزات وتقديم الأرقام الكبرى في طور البناء الحضاري والإنساني، وإحراز الثروات المتنوعة التي لا حصر لها، فضلاً عن خصوصية المجتمع وما له من خصائص، ولعله أقرب شبهاً بالبحر الذي لا يرى ما في أعماقه وقعره من كنوز وثروات عظيمة، فإن المجتمع تنضوي في أعماقه طاقات وقدرات وكفاءات جبارة للغاية.

فضلاً عن ذلك فإن قيم الدين ومفاهيمه كانت رابطته بالإنسان من أسمى وأرقى الصور، حيث سعت بكل ما تملك من إمكانيات للحفاظ على إنسانيته وحفظ حقوقه، ليس لأنه لا يمتلك في هذه الحياة غير هذا الرصيد فحسب، فإذا افتقده بات لا يملك شيئاً، وإنما انطلاقتها الأصيلة قامت على هذه الركائز والأسس، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً

لِّلْعَالَمِينَ ﴾[٣٢]. إضافة إلى ما عانته الإنسانية طوال حقب التاريخ، من الظلم والاضطهاد والقهر والاستبداد، الأمر الذي استدعى التعامل معه على أساس عادل لتحقيق سعادته واستعادة كرامته المسلوبة، وهذا ما كان يفعله الأنبياء والرسل عليهم السلام في صيانة الحقوق، والنأي عن المساومة في حقوقه وخصوصياته مهما كانت المصالح والأهداف كبيرة، ذلك أن القيم السماوية إنما تستنفر هذه القوى والإمكانات لتحقيق هذه المطالب، ولذا فإنها تستنكر التوفيق على تأسيس دساتير ومناهج تتطلع إلى سحق هذه المطالب، ومن هذا المنطلق غَذَّت صبغة التعامل الحواري على أسس السماحة ونشر الوئام بين الناس كافة □

الهوامش:

(١) سورة القصص، الآية ٤.
(٢) سورة الأعراف، الآية ٧٤.
(٣) سورة الشعراء، الآية ١٥١-١٥٢.
(٤) سورة طه، الآية ١٢٤.
(٥) سورة البقرة، الآية ١١.
(٦) سورة الكهف، الآية ١٠٣ - ١٠٤.
(٧) سورة الفرقان، الآية ٢٣.
(٨) سورة الفرقان، الآية ٤٣.
(٩) سورة الزمر، الآية ٤٥.
(١٠) عبد الجبار، محمد، المجتمع: بحوث في المذهب الاجتماعي القرآني، دار الأضواء، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ، ١٩٨٧م، ص٨٧.
(١١) الري شهري، محمد، ميزان الحكمة، مطابع مركز النشر، ج١٠، ص٣٧٧.
(١٢) سورة ص، الآية ٢٦.
(١٣) سورة الأعراف، الآية ١٧٥-١٧٦.
(١٤) المصدر، ج١٠، ص٣٧٧.
(١٥) المصدر، ج١٠، ص٣٧٧.
(١٦) المصدر، ج١٠، ٣٧٧.
(١٧) الصدوق، أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين ابن بابويه القمي، عيون أخبار الرضا، ج ٢، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م، ص٨٥، ٨٦.
(١٨) سورة المؤمنون، الآية ٧١.
(١٩) سورة الإسراء، الآية ٩٠-٩٣.
(٢٠) سورة الأنبياء، الآية ١٠٧.
(٢١) سورة إبراهيم، الآية ٣٢ - ٣٤.
(٢٢) شمس الدين، الشيخ محمد مهدي، بين الجاهلية والإسلام، المؤسسة الجامعة للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م، ص٢٥٨.
(٢٣) شفيق، منير، الإسلام في معركة الحضارة، الناشر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، بيروت، ١٤١١هـ، ١٩٩١م، ص١٧.
(٢٤) المجتمع (مجلة)، العدد ١٥٥٠، ١٤٢٤/٣/٩هـ، ٢٠٠٣م، ص١٩.
(٢٥) سورة الأعراف، الآية ٥٦.
(٢٦) الري شهري، محمدي، ميزان الحكمة، ج٧، ص٤٧٨.
(٢٧) المصدر، ج٧، ص٤٧٨.
(٢٨) المصدر، ج٥، ص٣٦٣.
(٢٩) المصدر، ج٥، ص٣٦٣.
(٣٠) المصدر، ج٥، ص٣٦٣.
(٣١) الطبرسي، أحمد بن علي بن أبي طالب، الاحتجاج، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٤١٠هـ، ١٩٨٩م، ص١٠٠.
(٣٢) سورة الأنبياء، الآية ١٠٧.